الأنتروبولوجيا البنيوية

وحدودها العلمية والإبستمولوجية

أ.**عبد الله بن معمر** جامعة تلمسان

مقدمة

طرحت الأنتروبولوجية البنيوية نفسها كطريقة في البحث، تحاول الارتقاء بهذا الفرع المعرفي – أي الأنتربولوجية– إلى مستوى دقة وصرامة وموضوعية العلوم الطبيعية، ومن بعده العلوم الإنسانية عموما. وقد وجد صاحبها في اللسانيات البنيوية النموذج الذي يجب أن تحذو حذوه الأنتروبولوجية؛ لأنها وحدها من بين العلوم الإنسانية استطاعت أن تحوز أو كادت على صفة العلم.

بهذا يكون ليفي– ستروس قد أعلن عن مشروع هو بمثابة " الثورة الكوبرنيكية " – في نظره – يأتي بديلا للمناهج المعتمدة قبله في حقل الأنتروبولوجية، وقاطعا مع كل نزعة فلسفية .

ولاشك أن هكذا مشروع يتوافق تماما مع المقاربة الإبستمولوجية لباشلار، القائمة على مفهوم القطيعة المعرفية، وعلى ضرورة استثمار واستلهام التطورات الحاصلة في العلوم التي تسمى صحيحة.

إن هذا المشروع الستروسي بقدر ما يكشف عن أهميته بفضل التجديد المنهجي الذي قام به في الأنتروبولوجية، يكشف أيضا عن محدوديته في نظر الكثير من منتقديه، وهي محدودية تتعلق بقيمة النتائج التي توصل إليها، وأيضا بمدى استيفائه بأهدافه الإبستمولوجية، خاصة إذا عرفنا أن بنيوية ليفي– ستروس نشأت في مناخ سجالي انتقادي لنزعات فلسفية كالوضعية والتجريبية والوجودية وغيرها.

لكن التساؤل عن الحدود العلمية والإبستمولوجية ليس مقصودا لذاته، أي من أجل تبيان نجاح بنيوية ليفي– ستروس أو فشلها، بل هو من أجل طرق إشكالية المنهج في الأنتروبولوجية. إن الحديث عن حدود الأنتروبولوجية البنيوية من شانه أن يبرز أساسيات البحث الأنتروبولوجي، التي تعطيه تميزه وخصوصيته.

إننا بمعنى أوضح نهدف من وراء هذه المقاربة الإبستمولوجية للأنتروبولوجية البنيوية إلى استخلاص الدرس الإبستمولوجي فيما يتعلق بالبحث الأنتروبولوجي.

تعريف الأنتروبولجية البنيوية ومرجعياتها

قبل أن نحدد المقصود بالأنتروبولوجية البنيوية، يجب أولا تمييز الأنتروبولوجية عن الإتنوغرافية والإتنولوجية. يتساءل كلود ليفي- ستروس في كتابه " الأنتروبولوجية البنيوية" : " ما العلاقة بين الناسوت والنياسية والإناسة، وما الفرق بينها؟ "[1].

ويرى أن الجواب على هذا السؤال بسيط نسبيا،" إذ يبدو أن جميع البلدان تفهم الناسوت [الإتنوغرافية] فهما موحدا. فالناسوت يتجاوب مع المراحل الأولى من البحث: المعاينة والوصف والعمل الميداني. والأدروسة[مونوغرافيا] التي تدور حول مجموعة محصورة النطاق بما يكفي لجعل الباحث قادرا على تجميع القسم الأعظم من معلوماته بناء على خبرته الشخصية، إنما تشكل نمط الدراسة الناسوتية بالذات "[2].

والإتنوغرافية تشتمل أيضا على المناهج والتقنيات المتصلة بالعمل الميداني من حيث تصنيف الظاهرات الثقافية المخصوصة ووصفها وتحليلها (سواء كانت أسلحة أو أدوات أو معتقدات أو مؤسسات).

هذا عن الإتنوغرافية أما " النياسة [الإتنولوجية] فتشكل بالنسبة للإناسة [الأنتروبولوجية] خطوة أولى على طريق الجمع والتوليف، وهي دون أن تستبعد المعاينة المباشرة تنحو نحو استخلاص نتائج واسعة النطاق بما يكفي، بحيث يصعب الاعتماد في تأسيسها على مجرد المعرفة المباشرة وحدها"[3].

فالإتنولوجية بهذا المعنى تشتمل على الإتنوغرافية بوصفها منطلقها الأولي كما إنها امتداد لها.

أما الأنتروبولوجية التي تقابلها التسمية الأنجلوساكسونية (الأنتروبولوجية المجتمعية والثقافية) فترتبط بمرحلة ثانية وأخيرة من الجمع والتوليف تستند على النتائج التي توصلت إليها الإتنوغرافية والإتنولوجية. " ففي البلدان الأنكلوساكسونية ترمي الإناسة إلى الإحاطة بمعرفة الإنسان معرفة إجمالية تشتمل على موضوعها بكل اتساعه التاريخي والجغرافي، وتتطلع إلى تكوين معرفة قابلة للتطبيق على التطور البشري بأسره"[4].

وهكذا بما أن الإتنوغرافية مرحلة سابقة وضرورية للإتنوغرافية، فإن الإتنولوجية بدورها تمثل مرحلة سابقة للأنتروبولوجية، وبمعني أوضح، إن الأنتروبولوجية تمثل الخطوة الأخيرة من تطور النهج الإتنولوجي.

وبالنظر إلى هذا الارتباط بين الإتنوغرافية والإتنولوجية والأنتروبولوجية ، فإنها " لا تشكل ثلاثة فروع معرفية مختلفة، وثلاثة تصورات مختلفة لنفس الدراسات، وإنما تشكل في الواقع، ثلاث مراحل أو ثلاثة أحايين من بحث أوحد بعينه. أما تفضيل واحدة من هذه الألفاظ الثلاثة فلا يعبر إلا عن إيلاء انتباه مخصوص لنمط معين من أنماط البحث لا يسعه أن يستغني عن النمطين الآخرين على الإطلاق" [5].

وهكذا إذا كانت الأنتروبولوجيا هي المرحلة الأخيرة التي يجب أن ننتهي إليها، بدءً بالإتنوغرافية كمرحلة أولى ثم الإتنولوجية كمرحلة تتوسطهما، دون أن يعني ذلك الانفصال كما رأينا، إذا كان الأمر كذلك فماذا يقصد ليفي – ستروس بإضافته كلمة بنيوية إلى الأنتروبولوجية؟

في الواقع إن كلمة بنيوية ليست إلا تحصيلا حاصلا باعتبار أن الأنتروبولوجية ليس بإمكانها إلا أن تكون بنيوية، لا بل العلوم الإنسانية بأكملها؛ ذلك أن البنية عنده تعتبر من أقصى درجات الدقة والتبسيط[6].

والرسالة التي يجب أن تضطلع بها تتمثل في تحقيق الموضوعية التي لا يجب أن تفهم فقط بالمعنى الشائع الذي مؤداه، تجرد الباحث عن معتقداته وأفكاره وميوله وأفكاره المسبقة، بل إن مفهومها أبعد من ذلك، إنه يتعلق بمناهجه في التفكير، أي بالتوصل إلى صياغة صالحة لا فقط بالنسبة للمعاين النزيه والموضوعي، بل بالنسبة لكل المعاينين الممكنين. فالأنتروبولوجي لا يعمد إلى إخماد مشاعره وحسب، بل إنه يعمد أيضا على شحذ مقولات ذهنية جديدة. ويساهم في إدخال مقولات زمانية ومكانية، ومقولات في التضاد والتناقض.

وتحقيق الموضوعية وبالتالي بلوغ الأنتروبولوجية ، ومن ثم العلوم الإنسانية ككل، دقة العلوم الطبيعية، يقتضي اعتماد الألسنيات البنيوية أداة، باعتبارها – رغم انتمائها إلى العلوم الاجتماعية أو الإنسانية – " العلم الذي حقق أكبر الانجازات وسبق غيره بأشواط بعيدة وربما كانت تنفرد أيضا بحق المطالبة بأن يطلق عليها اسم علم "[7].

وقد استفاد ليفي- ستروس على الخصوص من علم الأصوات الكلامية (الصواتية أو الفونولوجية) كما وضعه تروبتسكي، ذلك أن منهج هذا العلم يقوم على أربعة مساعي أساسية:

1- فالصواتية تنتقل من دراسة الظاهرات اللغوية الواعية إلى دراسة بنيتها التحتية اللاواعية.

2- إنها تتجنب معالجة المفردات بوصفها كيانات قائمة بذاتها، وتتخذ، بالعكس، من العلاقات القائمة بين هذه المفردات أساسا لتحليلها.

3- تدخل مقولة النسق.

4- تسعى إلى اكتشاف قوانين عامة[8].

أما الطموح الثاني الذي تسعى الأنتروبولوجية إلى تحقيقه فهو الكلية؛ فهي ترى في الحياة المجتمعية نظاما ترتبط جميع جوانبه ارتباطا عضويا فيما بينها. وهي تذهب مختارة إلى أن لا مفر، من أجل تعميق المعرفة ببعض أنماط الظاهرات، من تجزئة المجموع على نحو ما يفعل الباحث النفساني- المجتمعي والحقوقي والاقتصادي والاختصاصي بالعلم السياسي. ثم إنها تهتم اهتماما كبيرا بمنهج النماذج. ووضع الأنتروبولوجي للنماذج هو من أجل أن يكتشف شكلا مشتركا بين مختلف تجليات الحياة المجتمعية[9].

فما وراء العقلي، وما وراء التنظيم المجتمعي، وممارسات المجتامعات ومعيوشها، ما وراء قواعدها التي تختلف باختلاف الأمكنة، يوجد شيء مشترك نجده عند الإنسان مهما كان أصله أو كانت ثقافته، وأن هذا الشيء المشترك هو اللاوعي الجماعي للذهن البشري[10]. وهذا اللاوعي البنيوي الذي يتوفر عليه الإنسان والإنسانية ككل لا يفهم بالمعنى السيكولوجي لدى فرويد، أي باعتباره لاشعورا ليبيديا وعاطفيا- وهذا باعتبار استلهامه للنموذج الألسني — بل هو لاشعور منطقي يسميه باللاوعي البنيوي، والذي يمثل بنية ذهنية أو مقولة تتميز بأنها خفية، بحيث لا تتجلى في تمظهرات الثقافة. من هنا فإن حقيقة الموضوع لا يجب البحث عنها فيما هو جلي ولكن فيما هو خفي. وهنا تتدخل مرجعيتين أخريين إضافة إلى الألسنية البنيوية والتحليل النفسي، ويتعلق الأمر بالجيولوجية والماركسية. فهاتين الأخيرتين والتحليل النفسي " تبرهن على أ ن الفهم يقوم على إرجاع نمط من الواقع إلى آخر، وأن الواقع الحقيقي ليس أبدا الجلي"[11].

ويقول كلود ليفي- ستروس في ذلك: " لقد تعلمت من ماركس أن الوعي الاجتماعي منطو على خداع. وأننا لكي نفهم دوافعه يجب أن نغوص إلى مستوى أعمق. وفي المحصلة، فإن هذا المسعى مشابه للمسعى الذي مهد لنهوض العلوم الفيزيائية التي فرقت بين الكيفيات الثانية، أي الطريقة التي تدرك بها الحواس العالم، والكيفيات الأولى، الكامنة، والتي يتعذر الوصول إليها على الرغم من أنها أكثر صحة"[12].

وفي كتابه " الأنتروبولوجية البنيوية "، يقول: " ماركس هو الذي يدعونا إلى استخلاص السساتيم [الأنساق] الرمزية المضمرة سواء في الكلام أو في الصلات التي يقيمها البشر مع العالم "[13].

أما عن تأثره بفرويد فيقول : " تعلمت من فرويد أن التعابير التي يتخذها النشاط الذهني لها معنى، ويمكن حل رموزها، مهما كانت التعابير اعتباطية ولامعقولة"[14].

وإلى جانب كون اللاوعي البنيوي خفيا، فهو أيضا عام وشامل؛ لأنه يوجد لدى كل إنسان ولدى جميع الشعوب القديمة والحديثة، "البدائية " أو "المتحضرة". وهذا سبب كاف لرفض وصف بعض الشعوب اللاكتابية أو اللاتاريخية بالمتخلفة أو المتوحشة أو غير ذلك من النعوت السلبية.

وعلاوة على ذلك يتميز بأنه لازماني؛ أي إننا لا يحق لنا أن نقول إنه يتطور. وهذا سبب آخر لرفض ليفي- ستروس مفاهيم مثل " التقدم " و" التأخر " و"الرقي" و" الصحيح ". وذلك لأن الشعوب في ثقافاتها تسلك تحت تأثير اللاوعي البنيوي. ومن ثم فلا مانع من أن تظهر أنظمة مختلفة في وقت واحد. كما يمكن أن يغيب نظام في زمن سابق ثم يظهر مرة أخرى في وقت لاحق، وأيضا إمكان ظهور أنظمة مماثلة في أمكنة وأزمنة متباينة.

ولما كان اللاوعي كونيا فلابد أن يكون طبيعيا.

ومن خلال تبياننا لأهداف الأنتروبولوجية البنيوية وأهم مرجعياتها — إذ هي تستقي مفاهيمها أيضا من نظرية الجشتالت والرياضيات وعلم الجمال- يمكن تحديد موضوعها الذي هو دراسة الطبيعة الرمزية للموضوعات، وهذا ما يجعلها أحد العلوم التي تساهم في إنشاء علم للعلامة أو الرمز. يقول ليفي- ستروس : " سواء كنا بصدد دراسة لغوية أم بصدد دراسة اجتماعية، إننا في أعماق الرمزية"[15]. ولهذا استعار نموذج الألسنية البنيوية، القادر على كشف البنيات والرموز. وإذا كان الحدث الاجتماعي رمزا، فهو ينتمي إلى اللاوعي. فالرمز لاشعوري لذا فإن أهمية الأنتروبولوجية تكمن في كشفها عن

البنيات الرمزية اللاشعورية للحياة الاجتماعية والتي تتألف من بنى وأنساق كأنساق القرابة والأساطير وهي الموضوعات المحببة لكلود ليفي- ستروس.

وهكذا فإن استعارة التحليل البنيوي في الألسنية يجعل المنهج الستراوسي ألسنيا بقدر ماهو أنتروبولوجي فيما يقول إدموند ليتش[16].

أسس المنهج البنيوي

يقوم المنهج البنيوي على مجموعة من المفاهيم الأساسية مثل البنية التي مؤداها أن الواقع المدروس ينتظم في شكل بنية . ولكي تستحق ظاهرة أن يطلق عليها اسم بنية يجب توفر فيها شروط معينة[17].

إلى جانب هذا يميز المنهج البنيوي بين التحليل الأفقي أو السانكروني البنيوي والتحليل العمودي أو الدياكروني التاريخي. فإذا كان هذا الأخير يهتم بالتحولات التي تطرأ على الظاهرة، ومن هنا فهو بحث عن الأسباب بالمفهوم الكلاسيكي، فإن التحليل الأفقي يهتم بالعلاقات الموجودة بين عناصر الظاهرة المدروسة كما هي، وحسب معطياتها الداخلية فقط. ومعنى هذا أن الظاهرة قد ترجع إلى شبكة من العوامل التي تعمل عملها في إطار بنية كالعامل الجغرافي أو المستوى الثقافي، أو عامل السن، أو العادات والتقاليد، أو علاقة القرابة. وعلى أساس هذا التمييز ترفض البنيوية كل نزعة تاريخية، بل وتعتبرها عائقا يحول دون فهم موضوعي للظاهرة المدروسة.

ويميز المنهج البنيوي أيضا بين الواقع المعطى في التجربة وبين الواقع الحقيقي، كما أشرنا إلى ذلك سابقا- ذلك أنه ما دام الهدف هو الكشف عن بنيات الظواهر، فإن هذه البنيات لا تعطى مباشرة، بل ينبغي الغوص وراء الظواهر، وهذا لا يعني أن الواقع المعيوش غير مهم، فهو مهم كمنطلق لبناء نماذج ذهنية تفسره. وهنا نجد التوافق مع إبستمولوجيا باشلار التي أكدت على أن الموضوع العلمي لا يعطى، بل ينشئه العالم ويبنيه بواسطة الفكر الرياضي الخلاق، بمعنى أن العلم الفيزيائي يعتمد على المنهج الفرضي –الاستنباطي المستلهم من الرياضيات، يقول باشلار : " الملاحظة الأولى دائما هي العقبة الأولى بالنسبة إلى الثقافة العالمة "[18].

حدود الأنتروبولجية البنيوية

لا شك أن المشروع الستروسي قد أحدث ثورة منهجية في ميدان خاص هو الأنتروبولوجيا، وربما امتد تأثيره إلى فروع معرفية أخرى، لكن مع ذلك هناك حدود للمنهج البنيوي . فإذا كان صاحبه قد ابتغى تحقيق علمية كاملة في ميدانه، وأيضا تدشين عقلانية تتوافق مع العقلانية الباشلارية، فإن هذا المشروع أخفق في تحقيق أهدافه التي توخاها. وقد جوبه بانتقادات كثيرة من الفلاسفة ومن العلماء أيضا. لهذا سنعتمد في تبياننا لتلك الحدود بوجه خاص على إدموند ليتش وهو أنتروبولوجي وظيفي، وعلى روجي جارودي كفيلسوف كان أحد منظري الماركسية قبل أن يسلم. وتبيان حدود المنهج البنيوي يمثل مقاربة إبستمولوجية، تندرج ضمن التفكير الإبستمولوجي في فرع معرفي بعينه هو الأنتروبولوجية، ولذلك فهي تدخل ضمن ما يسميه محمد وقيدي الإبستمولوجية الجهوية[19].

فإدموند ليتش يرى أن المنهج الذي اعتمده ليفي- سيروس تميز بالجرأة، وهذا هو سر الإعجاب به، فقد اقترح طرائق جديدة في النظر إلى الوقائع المألوفة، وليس جدة أفكاره. " ولهذا فإن المهم في الأمر هو المنهج وليس النتائج العلمية التي يتم التوصل إليها باستخدامه "[20].

من الواضح أن ليتش يقلل من أهمية النتائج العلمية التي توصل إليها ليفي-ستروس. ويعزو ليتش ذلك إلى نقص العمل الميداني الذي ميز أعماله، فهو يقول بهذا الصدد : " وتبين الدراسة الدقيقة لكتاب المداران الحزينان أن ليفي- ستروس لم يتمكن في كل رحلاته البرازيلية من المكوث في مكان واحد أكثر من بضعة أسابيع في كل مرة وإنه لم يكن قادرا على مخاطبة أي من مصادر معلوماته من أبناء المنطقة بلغتهم الأصلية على نحو يسير وسهل"[21].

كما إنه فيما يضيف إن هناك الكثيرين ممن يرون أن ليفي- ستروس، مثل فريزر، لم يكن يتمتع بتلك الروح النقدية الكافية تجاه مخبريه ومصادر معلوماته. ويبدو أنه كان قادرا دوما على إيجاد ما يبحث عنه، ومستعدا لتقبل أية أدلة مهما تكن موضع شك ما دامت تتلاءم مع توقعاته المحسوبة منطقيا؛ أما إذا جاءت المعطيات معاكسة للنظرية فإن ليفي- ستروس إما أن يلتف على الأدلة أو يتجاوزها. وتبرير ليتش هذا بالتأكيد على تكوينه الفلسفي والقانوني؛ فستروس يسلك دائما كمحام يدافع عن قضية، لا كعالم يتحدث عن الحقيقة الواقعية.

وهكذا فإنه حسب ليتش إن ليفي- ستروس كان يعمل جاهدا على تدعيم أحكامه الجاهزة ببحثه عن أدلة مطابقة، ومبعدا ما يناقض تلك الأحكام. ولتوضيح هذا فإنه ينتقد افتراض ستروس الذي مؤداه أن أنظمة النسب الأحادي هي أنظمة كونية. " وهذا أمر خاطئ تماما – يقول ليتش- ولأنه خاطئ فإن خاتمة ليفي- ستروس المهيبة تختزل إلى محض هراء: ليست علاقة الخؤولة، بشكلها الأعم، سوى نتيجة منطقية لكونية تابو الزنى بالمحارم، خفية حينا، وبادية حينا آخر"[22]. فحسب ليتش يكون كتاب " البنى الولية للقرابة" نسخة مفصلة جدا ومعقدة من هذا الافتراض العام. وما لم ينتبه إليه ستروس فيما يرى ليتش هو الأمثلة السلبية الموجودة بكثرة. فهناك أدلة ملموسة لوجود مجتمعات تاريخية كثيرة لم تسد فيها تابوات الزنا بالمحارم " العادية ".

وثمة انتقاد آخر يوجه إلى ليفي- ستروس، ويتمثل في اتجاهه إلى تعميم النموذج اللغوي لدى جاكوبسون على كل مجالات العلوم الإنسانية، وإنكاره تعدد النماذج بتعدد ميادين البحث. بل إن الإصرار على هذا النموذج وحده دون سواه يجعل البنيوية " مذهبا إرهابيا " كما يصفها هنري لوفيفر؛ لأن المرء في نظرها إما أن يكون بنائيا متسقا يؤمن بأنموذج موحد ويطبقه تطبيقا شاملا على كل شيء، وإما أن يكون شخصا لا يفهم شيئا[23].

وينتقد جون بياجي فكرة ثبات العقل البشري لدى ليفي –ستروس الذي أكد أن لهذا العقل وظيفة رمزية لا يؤثر فيها الزمان، يقول : " ينبغي أن نعترف بأننا لا نفهم على وجه التحقيق لماذا يكون العقل قد كرم إذا ما حول إلى مجموعة من الأطر الثابتة، أكثر مما يكرم إذا نظر إليه على أنه نتاج لم يكتمل بعد، لعملية بناء ذاتي مستمرة. فهل من الضروري النظر إلى الوظيفة الرمزية على أنها ثابتة"[24].

وبياجي ينكر على ستروس هنا وهم الثبات الذي كان يشكل صنما كبيرا من أصنام الفلسفة منذ أيام أفلاطون، الذي يبدو أن ليفي- ستروس كان بدوره من الواقعين تحت تأثيره.

لكن مهاجمة هذا الوهم لا يعني السقوط في وهم مضاد هو القول بالتطور الذي على أساسه تم التمييز بين شعوب متحضرة تعرف المنطق والتفكير، وأخرى بدائية لها عقلية قبل منطقية، كما جاء ذلك عند ليفي برول.

وهكذا فإنه من الناحية الإبستمولوجية، يبدو أن ستروس يسقط في نزعة فلسفية مثالية، أعلن في مشروعه الأنتروبولوجي أنه بعيد عن الفلسفة، التي يعتبرها خطابا قبل علمي، وهي لذلك تبقى عاجزة عن فهم المجتمعات المعاصرة التي " بلغت – فيما يقول– درجة من التعقيد بحيث لم أعد متيقنا من قدرة الفكر النظري على فهمها منذ الآن فصاعدا"[25].

ويوجه روجي جارودي انتقادات مشابهة للتي سبق الإشارة إليها. فهو يشير على جنوح ستروس رويدا رويدا نحو نزعة مثالية بنيانية قائمة على أساس تصور نظام عام للممكنات المتكونة، من دون أن تظهر في أية لحظة ممارسة الإنسان الخلاقة[26]. وجارودي يشير بهذا إلى فكرة نزع كل مبادرة للإنسان في صنع التاريخ، فالبنيوية بهذا الاعتبار تعلن موت الإنسان كما أعلن قبل ذلك نيتشه موت الإله.

يشير جارودي إلى حد آخر للمنهج البنيوي ، فمع تعريف الإنسان وثقافته باللغة وحدها يجري استبعاد و– من دون إعطاء سبب هذا الاستبعاد – كل قالب آخر للحياة الاجتماعية والثقافية. ويشير إلى دراسة لوروا غورهان عن التقنية واللغة التي تقدم قرائن فرضية أخرى ونمط آخر في التفسير، يقوم على أن الحد الفاصل بين الطبيعة والثقافة، بين الحيوان والإنسان، لا يتمثل في رأيه بتبعة اللغة فقط، بل كذلك بتبعة العمل. وهذه الأطروحة تقدم بها فرانكلين منذ القرن السابع عشر، تؤكدها اليوم على ما يبدو جميع أبحاث الأحاثة وما قبل التاريخ والتاريخ[27].

أما الحد الرابع فهو محدودية مجال انطباق دراسة ستروس؛ ذلك أنه قصر أبحاثه بصورة على قبائل بدائية للغاية في أمريكا اللاتينية، أي على مجموعات تعيد بنيتها إنتاج ذاتها إلى ما لا نهاية بدون تغيير يذكر، مجتمعات هي بمعنى من المعاني بلا تاريخ. ومعنى هذا أن المنهج البنيوي ستعترضه مشكلات إذا ما حاولنا سحبه على مجتمعات تشهد تحولا مستمرا بفعل التطور الرأسمالي[28].

الدرس الإبستمولوجي

كما ذكرنا سابقا إن هذه المقاربة الإبستمولوجية، ليست من مقصودة لذاتها، بل هي من أجل استخلاص دروس إبستمولوجية تهم الأنتروبولوجية كفرع معرفي، يحاول دائما الاستفادة من منجزات العلوم الأخرى، ولعل هذا يندرج ضمن الإبستمولوجية المفتوحة التي تحدث عنها باشلار،

فالعلم يرفض الثبات، ويرفض أن توضع له حدود، وبما أن الأنتروبولوجية تعتبر أحد العلوم الإنسانية التي لها تميزها من حيث الموضوع ومن حيث المنهج، فلا بد لها من أن تستفيد من المفاهيم والمناهج التي تبرز فعاليتها في الكشف عن الواقع، الذي يتميز بتعقيده على مستوى الإنسان.

والإبستمولوجية المنفتحة نقدية بطبيعتها، فهي تقوم على المراجعة المستمرة، ولهذا تجد مقاربتنا للأنتروبولوجية البنيوية مشروعيتها.

ولأن كان ثمة من دروس نستخلصها منها، فهي متعددة، يمكن أن نبرز ما يتعلق منها بمسألة المنهج في الأنتروبولوجية.

إن أول درس هو تجاوز فكرة النموذج أو المنهج الأوحد، الذي لا يمكن تعويضه أو تكميله بنموذج آخر. فإذا كان النموذج الألسني يهيمن في فكر ستروس، فإنه من الخطأ التوقف عند هذا النموذج.إذ يمكن اعتماد نماذج أخرى يفرزها تطور العلوم. ولهذا فإننا ندعو إلى تعدد منهجي، ذلك أن الواقع متعدد الأوجه ومتشعب، ومن غير الممكن إضاءته بمنظور واحد أو منهج واحد. وهكذا فإن الأنتروبولوجية بحاجة إلى مناهج متعددة ومتكاملة.

والدرس الثاني هو عدم إغفال البعد التاريخي في الدراسات الإنسانية؛ ذلك أن الماضي يضيء الحاضر، وكل من يحاول إغفال هذا البعد يسقط في نزعة صنمية متحجرة تغفل دينامية الظواهر الاجتماعية والإنسانية. فلا شك أن الظواهر الثقافية لا تنبثق من فراغ، بل هي تنشأ في وسط اجتماعي يتميز بالتغير والتحول.

أما الرس الثالث فيتعلق بجهور البحث الأنتروبولوجي، فمن الأكيد أن العمل الميداني كما أرسى قواعده مالينوفسكي، يشكل جوهر الأنتروبولوجية، فالميدان هو مصدر المعلومات التي بإمكان الباحث جمعها، و الميدان هو في النهاية الفيصل، لأن اختبار الفرضيات يؤول في النهاية إليه. ولهذا فإن الملاحظة المشاركة تمثل أهم أداة في المنهج الأنتروبولوجي، التي تتكامل مع أدوات أخرى مثل المقابلة، والإحصاء، وتحليل المضمون...

الهوامش

[1] - كلود ليفي- ستروس ، الإناسة البنيانية، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط1، 1995، ص375.

[2] - المرجع نفسه، ص375.

[3] - المرجع نفسه، ص376.

[4] - المرجع نفسه، ص376.

[5] - المرجع نفسه، 377.

[6] - عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، ط3، 1993، ص30.

[7] - المرجع نفسه، ص43.

[8] - المرجع نفسه، ص46.

[9] - المرجع نفسه، 386- 387.

[10] - Jacques Lombard, Introduction à l'éthnologie, ARMAND COLIN , Paris , 2 Ed, 1998, p.136.

[11] - المرجع نفسه، ص 136.

[12] - إدموند ليتش،كلود ليفي –ستروس، البنيوية ومشروعها الأنتروبولوجي، ترجمة ثائر ديب، ط3، 1985،ص154. ص، 186-187.

[13] - كلود ليفي- ستروس، مرجع سابق، ص111.

[14] - الزاوي بغورة،المنهج البنيوي،دار الهدى- الجزائر،2001 ،ص148.

[15] - إدموند ليتش، مرجع سابق، ص187.

[16] - إدموند ليتش، مرجع سابق، ص11.

[17] - ينظر كلود ليفي –ستروس، الأنتروبولوجية البنيوية.

[18] - غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص18.

[19] - ينظر محمد وقيدي، جرأة الموقف الفلسفي، إفريقيا الشرق- المغرب، لبنان، 1999، ص119.

[20] - إدموند ليتش ، مرجع سابق، ص11.

[21] - إدموند ليتش، المرجع نفسه، ص26.

[22] - المرجع نفسه، ص 140.

[23] - فؤاد زكريا، الجذور الفلسفية للبنائية، دارقرطبة للطباعة والنشر- الدار البيضاء، ط2، 1986،ص27.

[24] - فؤاد زكريا ، المرجع نفسه ،ص828 نقلا عن بياجي (البنيوية) ص114.

[25] - إدموند ليتش، مرجع سابق،في : " ماكنت ، ما أردت ان أكون" ، مقابلة مع ليفي-ستروس، ص175.

[26] - روجي جارودي ، مرجع سابق، ص29.

[27] - المرجع نفسه، ص32-33.

[28] - المرجع نفسه، ص33-34.